

الطب القديم والطبابة

في النجف الأشرف

السيد أحمد الحسيني (*)

لعلك لا تجد - قارئ الكريم - شيئاً جديداً في حديثي عن الطب والطبابة في النجف الأشرف أواسط القرن الرابع عشر الهجري، وقبل انتشار الطب الحديث والأطباء المعالجين بالآلات والأدوية الحديثة التي أصبحت تتقدم كل يوم بفضل ما يكتشف من الأمراض والأدواء، فإن الأطباء قديماً كانوا - في الأكثر - على وتيرة واحدة يشبه بعضهم بعضاً في طريقة المعالجات التي كانوا يزاولونها والأدوية التي يجيزونها لمرضاهم، والعمليات الطفيفة التي يجرونها على المرضى والمصابين بالأمراض الخطرة، ولكنه على كل حال جانب علمي اجتماعي يجب أن نكتب عنه كما رأيناه ليتكامل تأريخ النجف من شتى المجالات.

إن أول ما شاهدنا فيهم الايمان الصادق بالله تعالى، والقناعة النفسية بأن عملهم عمل قربي يقربهم إلى الله زلفى ويكتسبون به الثواب الأخرى، كما كانوا يرون أن مهنتهم واجب إنساني مقدس تفرض عليهم خدمة الإنسانية ماداموا قد دخلوا في هذا الميدان ورزقهم الله العلم بأسرارها.

هذا الشعور المليء بالإيمان ومعرفة الواجب، كان أقوى محفز لهم على الاخلاص في العمل واستقبال المرضى بوجه يتجلى في أساريه العطف عليهم، وقلب طافح بالحنو عليهم، يتفائل عندهما أحسن مظاهر العواطف والحنان، فلا يهدفون من الطبابة الكسب المادي، واختزان الأموال والترف في المعيشة واكتساب الشهرة والجلال، بل يسعون بكل جهدهم في انتشال بني نوعهم مما يهددهم بالدمار والفناء بسبب الأمراض والعاهات.

ان ضمائر أطبائنا القدامى المضاءة بنور الايمان، كانت هي الدافعة لهم إلى الصدق والاخلاص في العمل والشعور بالمسؤولية الإنسانية، وكان يتوسم البشر والطلاقة في ملامح وجوههم ويحس بالغ الحنان بين جوانحهم، بهذا كانوا يداوون مرضاهم بالرغم من عدم وجود الوسائل الكافية لديهم وبساطة الأدوية في معالجتهم.



يبدأ الشاب بالعمل عند بعض الأطباء المعروفين في بلده كمساعد له فيما يحتاج إليه من المساعدة عند المعالجة، ويقرأ لديه أو لدى غيره من أساتذة الفن بعض الكتب الطبية المعروفة آنذاك، متدرجاً من السهل الميسر إلى الكتب الكبيرة، التي فيها عمق في عرض المسائل والآراء. وأهم ما يقرأ بهذا الصدد على الترتيب: كتاب «القانونچه» ثم «الحاوي» ثم «الاقرباذين» ثم «القانون» ثم بعض شروح القانون، ويطالع ضمن قراءة ما ذكر من الكتب جملة مما ألف في الطب العام وتركيب الأدوية والتشريح وما إليها.

بعد سنين من الدراسة - ربما تتجاوز العشر - يبدأ بمزاولة بعض الوصفات الطبية الطفيفة، ثم يتوسع في معالجة المرضى، ويختزن التجارب العلمية والعملية بقدر همته في الاكتساب، وذكائه في معرفة المرض وكيفية معالجته، وعندما يبلغ الحد المطلوب من العلم والتجربة يميزه أستاذه في التفرد بمباشرة المرضى وعلاجهم بنفسه.

ان من المستحسن جداً أن يلم الطبيب بالمعارف العامة بعض الامام، وعليه أن يتعلم الفلسفة والعلوم العقلية خاصة، لأن قدماء الأطباء كانوا يرون بين الفلسفة والطب علاقة وثيقة لا يمكن أن يكون الطبيب طبيباً بالمعنى الصحيح إلا بعد أن يصبح ذا معرفة تامة بالعلوم الفلسفية.

ان الطب القديم يستمد في كثير من المعالجات على الأعشاب، وعديد من المواد الطبيعية، فلا بد أن يكون الطبيب كثير المعرفة بما للأعشاب من الخواص، وما للمواد الطبيعية من الفوائد، حتى يتمكن من استخدامها على الوجه الصحيح ولا يقع في أخطاء ربما تؤدي بحياة المريض.

في بيت الطبيب (أو الحكيم كما كان المعروف في تسميته) غرفة هي محل مباشرة المرضى، مفروشة بفرش متواضع أو فيها كرسي للجلوس، فيما يواجههم الطبيب ويكتب لهم الوصفة الطبية، إلا أن يكون المريض يريد التحدث بأشياء من شؤونه الخاصة، ويجتنب عن وقوف بقية المراجعين عليها، فعندها يخلو به الطبيب في البهو الموجود عند باب البيت أو في غرفة إلى جانب الغرفة العامة ويستمع إلى كلامه.

لا تجد في البيت بواباً يحرسه، أو يتعرف على المراجعين، أو يجري عملية الادخال على الطبيب، كل هذا مما يتجنبه أطباؤنا القدامى، لأنها تستوجب تكاليف مادية تقع على عاتق المراجعين ويصعب على أكثرهم حمل عبئها.

يجلس المرضى في الغرفة العامة بترتيب دخولهم فيها، وفي الساعة المعينة يدخل الطبيب من باب يفتحه من داخل البيت، فيبدأ بالسؤال من أول الجالسين عما يشكو ويجس نبضه بتأن وتروي، ثم يقرب أذنه إلى صدره ليسمع دقات قلبه إذا احتاج إلى ذلك، ثم يستمر في السؤال عما يعينه على معرفة نوعية المزاج والمآكل وخصائص المعيشة، ليتعرف على الداء ويكتشف

المرض، وبعده يكتب الوصفة ويراعي في كتابتها الحالة المادية للمريض، فيحاول أن يقتصر على ما لا يكلف الفقير مالا كثيراً.

والوصفات تكتب على قصاصات من أوراق روعي فيها كمال الاقتصاد، فهي على أحجام أصغرها ٣/٢ سم و أكبرها ٧/٥ سم، تستعمل الصغيرة في الكتابة على الأكثر، ويحتفظ الطبيب بالكبير منها للحالات خاصة تستوجب كثرة الكتابة، يستخرج الحكيم قسماً من هذه الأوراق من جيبه ويكتب عليها بالقلم الرصاص، ويندر أن يمزق الورقة ليكتب من جديد نتيجة لتبدل رأيه في كيفية العلاج.

وفي الحالات الاضطرارية لا يستنكف الطبيب أن يزور المريض في بيته، فعند ما يكون المرض شديداً لا يمكن خروج المريض من البيت ليس على أوليائه إلا إخبار الطبيب فيسعى إلى زيارته ومعالجته وهو في بيته، فلا يحتاج إلى الركوب ولا إلى دليل يصطحبه، لأن المدينة صغيرة يعرف الأهالي بعضهم بعضاً ويسهل السعي اليهم.

والجدير بالذكر أنني لا أعرف طبيباً طالب أجره على تطيبه أو عين مقدار الأجرة، فإذا أعطي شيئاً أخذه ووضع في جيبه من دون عد النقود، وإذا لم يعط شيئاً لم ينس بنت شفة. أما الفقير المحتاج فلا يؤخذ منه شيء بل يساعده الطبيب في شراء الدواء بما تيسر من النقود، كما يساعده في ثمن بعض المأكّل الضرورية إذا كانت غالية الثمن وهو بحاجة إلى التقوية بها لدفع ما به من السقم.

ليس على الطبيب رقابة رسمية ولا الحكومة تحاسبه على أفعاله، كما لا يحتاج إلى شهادة من مدرسة أو شخص تخوله مزاوله أعماله في معالجة المرضى، بل رقيه ضميره المشبع بالايمن كما قلنا، وهو أحسن رقيب يحد كبوات النفس وزلل الأهواء، إذا كان حاكماً على الإنسان.

قبل أن نودع القارئ العزيز نود أن نأتي على ذكر أشهر أطباء النجف الأشرف الذين أدركناهم في السنوات الأخيرة من حياة الطب القديمة:

١ - الشيخ مرزا خليل: أصله من مقاطعة آذربيجان في روسيا وسكن آباءه النجف، وعمل في الطب سنين طويلة، وكان مشهوراً بالحذق وحسن تشخيص الأمراض والاصابة في المداوة، مع شيء من الحدة في طبعه مزيجة بالظرف والأريحية، وهو كثير العناية بالمرضى شديد الاهتمام بهم ويعتبرهم أولاده فيرعاهم رعاية الأب لولده.

٢ - السيد حسين التبريزي: شيخ وقور يتسم بالهدوء والاتزان، في وجهة بشاشة وعليه سيماء الصالحين، وكان قليل المباشرة للطب مع جيد معرفته به، ولا يأخذ ممن يباشره شيئاً من المال، بل يكتفي في معيشته بما يدر عليه بعض موارد مالية خاصة به.

- ٣ - السيد مرزا أبو الحسن الشيرازي: من أسرة المرزا محمد حسن المجدد الشيرازي المرجع الديني المشهور، وكان صبيح الوجه هاشماً باشاً ذا أخلاق طيبة، وأكثر معرفته بما يسمى بالطب الداخلي وطب الأطفال، ولحسن سمعته كان أسف الناس عليه شديداً عندما أصيب بالفالج في سنواته الأخيرة.
- ٤ - الشيخ مرزا محمد الخليلي: عالم من بيت علمي معروف بالتقوى والمرجعية، فاضل شاعر أديب له مؤلفات نافعة أشهرها «أمالي الامام الصادق» و«معجم أدباء الأطباء»، وكان يعالج مراجعيه في مقبرة أسرته إلى جنب مدرستهم الدينية المعروفة بمدرسة الخليلي، وكان كثير المعاشرة مع الفضلاء والأدباء يتطبب قليلاً من ساعات النهار ثم ينصرف إلى العلم والأدب، وفيه ظرف ومزاح مع الالتزام بالوقار والاتزان.
- ٥ - الشيخ مرزا صادق الخليلي: فاضل أديب ملتزم بالفضائل الأخلاقية، يعمل في طب العيون وله فيه يد طولى وشهرة، يمدحه مراجعوه في أخلاقه وحسن معرفته بالمعالجات.
- بيروت ٢١ / ٥ / ١٩٩٢

تصويبات

- وقعت سهواً بعض الأخطاء في الأعداد السابقة، يرجى من القارئ الكريم متابعتها مع الاعتذار:
- تصحيح الهامش رقم (٢) في الصفحة ٩٨/ من العدد ٩/ ويحل محله:
 - (٢) السيد محمود بن السيد حسين بن محمود بن قاسم الجبوبي، شاعر، أديب، سكرتير الرابطة الأدبية في النجف.
 - وضع الهامش الآتي تحت الصفحة ٥/ من العدد ١١/:
 - * شاعر، أديب، سكرتير الرابطة الأدبية في النجف.
 - وضع الهامش الآتي تحت الصفحة ٧/ من العدد ١١/:
 - * أديب، شاعر، من أساتذة جامعة بغداد.
 - تصحيح صورة الغلاف الداخلي الخلفي للعدد ١١/ ليصبح (- النجف ١٩٨٥).
 - إكمال البيت الشعري في السطر ٨/ من الصفحة ١٢٧/ من العدد ١٢/ ليصبح كالآتي:
 - بحق عترة النبي الأكرم
 - إكمال الأبيات الشعرية في الأسطر ٩/ ١٠/ ١١/ من الصفحة ١٢٩/ من العدد ١٢/ لتصبح كالآتي:
 - رفعوا دعائمه
 - الجنان الدائمة
 - عليك لائمه
 - تصحيح السطر ١٢/ من الصفحة ٣/ من العدد ١٢/ ليصبح:
 - الحاج يحيى مجيد مال الله
 - كذلك السطر ٨/ من الصفحة ٢٤٣/ من العدد ١٢/ ليصبح:
 - (الوجيه الفاضل الحاج يحيى مجيد مال الله)